الفصل السابع

المنهج

ولعله لا يسبق الى الذهن ـ بعد قراءة هذا الفصل ـ أننى أقف موقفا عدائيا من المستشرقين ، بل بالعكس ، هم قد أدوا للثقافة العربية خدمة لا تنكر ، فى وقت كان العقل العربى فيه قد أصيب بالعقم ، فلم يستطع حتى فهم تاريخه ، والتنبه للعوامل الخفية فى مسيرته ، فليس من الانصاف فى شىء أن ننتكر لجهود المستشرقين فى التحقيق ، والكشف عن التراث القديم ، وفى التـأليف حول هـذا التراث ، فعلى أيديهم تعلمنا المناهج الحديثة ، التى استطعنا بها أن نبعث التراث ، وأن نحلله من وجهة نظر معاصرة •

ان ما أعنيه فى هذا الفصل هو رفضى لذلك المنهج الغريب ، الذى لا يتفهم روح الفكر العـربى ، فيحاول أن يطبق عليـه قوالب جاهزة خارجية ، أعدت واستنتجت من واقع آخر • وربما كان تركيزى على « المستشرقين » لأن الكثير منهم وقعوا فى هذا المزلق ، فسحبوا الفكر العربى الى داخل نفوسهم ، ولونوه بلونها المتأثر بحضـارة أخرى ، لها مسيرتها الخاصة ، ومن ثم نظرتها المختلفة •

وربما كان لهم بعض العذر فهم قد اتصلوا بالشرق ولم يكن ذهنهم خاليا ، بل كان مشكلا بتراثهم وفلسفتهم وفكرهم وتاريخهم ، فكلما رأوا ظاهرة عربية ، تبادرت الى ذهنهم ظاهرة شبيهة لها فى تاريخهم ، فقاسوا هذه بتلك • فالحب العذرى مصدره أفلاطونى • والمقامة الأدبية هى احياء

لشكل هيلينى ، والفكر العربى يرجع الى أقيسة منطقية ، كما يرى غرنباوم (١) •

وحين اتصل الأوربيون بالحضارة العربية كان عقلهم مشكلا بالمنهج الاغريقى — الأوروبى ، فافترضوا فى الأنبياء والحواريين والصحابة والمصلحين نيات تقوم على المنفعة والمادة ، ففى أكثر من موضع يشيد كتاب « وصف مصر » بمحمد كسياسى محنك ، ويفترض فى تشريعاته أغراضا مادية أكثر منها دينية ، فهو قد فرض الحج لأسباب تجارية (ص ٢٠٧) ، وشرع الوضوء لأنه ضرورى للنظافة فى البلاد الحارة (ص ٣٦) ، وترك حرية العبادة للأديان الأخرى لأسباب سياسية (ص ١٦) ، وأباح الملذات بعد الافطار فى شهر رمضان لأنه « أراد بذلك أن يخفف وطأة تلك النوبة المهلكة فعمل على أن يصحبها أوقات تخصص للمسرات » (ص ١٩١) •

ثم أضيف سوء النية الى سوء الفهم ابان ازدهار الاستعمار ، فابتعد ذلك المنهج عن الروح العلمى خطوتين ، فهو منهج غريب عن الواقع العربى أولا ، وهو منهج غير موضوعى ثانيا • ويبدو أن « عطيل » كان يخشى هذا الموقف ، وأن يفسد سوء النية سيرته ، فقال فى نهاية مأساته محذرا « ولكنى أرغب اليكم حينما تقصون قصتى فى رسائلكم أن تذكرونى بحقيقتى ، لا بمزيد ولا بنقصان ، وألا تدخلوا فيها شيئا من المكر السيىء » •

فقد انتشرت فى العالم الغربى تلك المناهج التى تهرب من المفهوم ، وتحاول أن تحدد الظاهرة من خلال الوصف الخارجى ، كما نرى ذلك ممثلا فى منهج العاملية فى الفيزيائية والسلوكية فى العلوم الاجتماعية ، وتعرضت الشخصية العربية لمثل هذا المنهج ، وقامت دراسات كثيرة ميدانية لتحديد

---

(١) راجع : دراسات فى الأدب ص ٢٠٧ و ١٣٥ و ٧٦ على الترتيب .

أهم سماتها ، مثل البحث الذى أجراه جيسلباى وأولبورت على الطلبة المصريين المقيمين فى الخارج • والبحث الذى أجراه الدكتور صنوع على الأسرى المصريين ، والبحثين اللذين أجريا على النـازحين من الضفة الشرقية الى الضفة الغربية • وغير ذلك من بحوث قام بهـا هاركابى ، وسنية حمادى ، وبيرجر ، وهيج خافشيان دوريان ، ترى أن أهم سمات الشخصية العربية هى : ضعف العلاقات الاجتماعية ، روح العداوة ، عدم الثقة بالناس ، الفردية ، حب الدماء ، التناقض ، المسـايرة ، النفاق ، التبعية ، الازدواجية ، الفصامية ، وغير ذلك (١) •

وربما كان أخطر تلك البحوث هى ما قام به علماء فى الجامعـة ، ونشروه فى بحوث ، وألقوه فى مؤتمرات علمية ، وأعطوه سمة النظرية العلمية التى يدرسها الطلبة فى الجامعات ، وذلك مثل البحث الذى ألقاه البروفيسور « يورو » فى مؤتمر الأمراض العقلية والعصبية الذى عقد سنة ١٩٣٥ م بمدينة بروكسل ، ومثل البحث الذى نشره سنة ١٩٣٩ م فى مجلة « الجنون الطبى الجراحى » بالتعاون مع تلميذه « سوتر » أستاذ الطب العقلى بمدينة الجزائر ، ومثل آراء الدكتور « كاروتر » خبير منظمة الصحة العالمية ، والتى جمعها فى كتاب نشر سـنة ١٩٥٤ بباريس تحت عنوان « سيكلوجية الأفريقى : السوية والمرضية » (٢) •

لست أناقش نتائج تلك البحوث فقد تكون صادقة فى بعضها ، ولكن المنهج الذى أوصلنا اليها منهج قاصر ، قد يصلح لقياس طول شىء ما ، أو تحديد أبعاد جسم ما ، ولكن لا يصلح للنفس الانسانية ، التى تتعرض وتتأثر بأحداث خارجية ، وتتركب من طبقات ، طبقة فوق طبقـة ، ان ما يحدث أن هذا المنهج يتعلق بطبقة ظاهرية ، فيصفها وصـفا خارجيا بحجة العلمية ، ثم لا يلقى ببصره الى شىء وراء ذلك •

---

(١) راجع : الشخصية العربية ١٤٠ — ٢٣٢ .
(٢) راجع : معذبو الأرض ٢٧٧ — ٢٨٥ .

ان هذا المنهج يحتاج الى منهج آخر يكمله • ويفسر الظاهرة بظروف تاريخية ، ثم يبحث عن الطبقات الأخرى الخفية ، أو عن التطور التاريخى الذى جاء بنا الى الطبقة الأخيرة والظاهرة للعيان ، فلا يحبس نفسه فى الآن فقط •

ولكن سوء النية أو المكر السيىء الذى كان يخشاه عطيل ، يضاف الى سوء الفهم ، فيعملان معا على افساد الشخصية العربية وبتعمد ، فيتخلى هؤلاء الباحثون هذه المرة عن أهم سمة من سمات منهجهم وهى بعده عن الأحكام الكلية الميتافزيقية ، فيحاولون أن يسحبوا ما توصلوا اليه من نتائج ، قاموا بها على عينات فردية معزولة داخل ظروف خاصة على حضارة بأسرها ، أو قارة ، أو دين • فهاركابى يرد روح الفردية عند العرب الى ضعف حضارى ممتد بجذوره ، والدكتور صنوع يؤكد أن ترديد سرحان بشارة سرحان لكلمة « الدم » لا يعنى أننا ازاء شخصية مريضة شبه فصامية • بل هو انعكاس لخلفية حضارية أكثر منه انعكاسا لمرض عقلى • وهيج خافشيان دوريان يؤكد أن صفة الازدواجية عند العربى قد تأصلت عنده ، فهو لا يفعل ذلك خوفا من رؤسائه أو نفاقا للسلطة ، بل يفعله ولو خلا الى نفسه •

والنظريات التى استنتجت من عينات جزائرية ، فسرت بروح الاسلام الذى يميل الى العنف والدماء كما يزعمون ، ثم عمموها على شمال افريقيا ، أو على الأفريقيين بوجه عام ، فالبروفيسور « يورو » يرى « أن السكان الأصليين بشمال أفريقيا يتصفون بأن نشاط المراكز اللحائية العليا عندهم متخلف ، فهم أناس بدائيون يسيطر الدماغ المتوسط خاصة على حياتهم ، التى تقوم على الوظائف الحيوية الدنيا وعلى الغرائز » والدكتور « كاروتر » يلاحظ أن الأفريقى بوجه عام « قلما يستعمل الفصين الجبهيين فى دماغه ، ويمكن أن ترد جميع خصائص الأمراض العقلية فى أفريقيا الى الكسل فى الفص الجبهى من الدماغ » ،

ثم يقدمون فى النهاية مقترحاتهم ، وكأنهم يروضون وحوشا ، أو أطفالا مشاكسين ، فعميد القضاة فى محكمة بالجزائر يرى أن ثورة الجزائر ليست سياسية وانما هى انعكاس لحب الجزائرى للمعامع ، ويكفى لوقفها وضع سلسلة من الألعاب القادرة على ضبط الغرائز • والدكتور كاروتر يعرف ثورة « المـاوماو » بأنها تعبير عن عقدة حرمان لا شـعورية ، ويمكن تفاديها علميا بتحقيق تلاؤمات سيكلوجية •

* * *

وحين بدأ المفكرون العرب فى العصر الحـديث يبحثون فى الواقع العربى ، كانوا قد تقولبوا فى قوالب أوروبية ، فهم قد تعلموا فى جامعات أوروبا ، وتلقوا المناهج على أيدى مستشرقين ، وكانوا مبهورين للغاية بتلك الحضارة التى حققت فى بيئتها انجازات لا سبيل الى انكارها • وحينئذ أخذوا يشكلون واقعهم بتلك القوالب التى درسوها وبهروا بأصحابها ، أى أنهم لم يبحثوا التاريخ العربى من خلال حركته الذاتية بل من خلال المقاييس الخارجية ، فكان أى تشابه ولو ضئيلا يدفعهم الى القول بأن العرب قد عرفوا الوجودية أو الاشتراكية ، دون رد ذلك التشابه الخارجى الى جذوره الأصلية ، خذ مثلا قضية « الوجود سابق على المـاهية » لقد وجدها الدكتور عبد الرحمن بدوى فى التصوف الاسلامى كما وجدها فى الوجودية ، فحكم بالتلاقى بينهما فى كتابه « الانسانية والوجودية فى الفكر العربى » دون رد الفكرة الى جذورها • لقد جاءت المذاهب الوجودية احتجاجا على السيطرة العقلية ، وتمردا على الكوجيتو الديكارتى الذى يلخص الانسان فى الفكر « فهو يبدأ من الفكر وينتهى الى الفكر كما يقول هاملان » (١) ، أما تلك القضية فى الاسلام فهى ليست احتجاجا على العقل ولا الغاء له ، انها ترتبط بتصور وظيفة العقل فى الحضارة الاسلامية ، فهى أبدا لم تؤلهه بل وضعته فى وضعه المناسـب ازاء المطلق ، وكانت

---

(١) الفلسفة الفرنسية ص ٩ .

النتيجة تلك الأديان التى تؤمن بالوجود قبل الماهية وتحبذ دور العمل والسلوك والتجربة ، فالفكرة فى المذاهب الوجودية انما هى رد فعل للغرور العقلى ، وهى — عند أشهر تلك المذاهب — تتمرد على الاله ، وتستبدل غرورا بغرور ، فالوجود فى موقف هو الوضع الجديد ، وقرار الانسان وحده فى هذا الموقف هو الذى يشكل مصيره ، أما الوجود فى الاسلام فهو يرتبط بالمطلق ، ويلتمس العناية والتوفيق •

وحين أراد بعضهم أن يثور على أسر الفكر الغربى لم يستطع أن يخرج من معطفه • فالدكتور على سامى النشار حاول فى كتابه « مناهج البحث عند مفكرى الاسلام » أن يكتشف منهجا خاصا للمسلمين ، ولكنه لم يستطع أن يتجرد من المنطق الأرسطى ، فجاءت أبواب كتابه تدور حول هذا المنطق ، بحيث لو أسميناه « منطق أرسطو عند المسلمين ، ما له وما عليه » لكان أدق • والدكتور محمد عبد الله دراز حاول أن يكتشف نظرية أخلاقية فى القرآن الكريم ، ولكنه درسها فى موازاة فكر كانت وغيره من الفلاسفة •

* * *

ولسنا نلوم هؤلاء الأساتذة الأجلاء ، فانهم أساتذتنا وقد قدموا فى حدود ظروفهم أشياء قيمة لا نستطيعها ، ولكننا نشخص فترة كانوا هم نتاجها ، والانسان ابن بيئته ، فترة تعلق فيها العرب بالفكر الأوروبى بالتقليد أو المحاكاة • وأظن أن الموقف الآن قد تغير ، أو يجب أن يتغير وأن نستعيد الثقة بالعقل العربى ، لكى يفكر فى واقعه تفكيرا مستقلا ، وما أظن أننى بقادر على شىء فى هذا المجال غير تلك الاشارة الى هذا الموقف الجديد ، وغير طرح بعض العموميات التى قد تفيد :

١ — الحقيقة لا تأتى من طريق واحد ، والشعوب تختلف فى تصورها للحقيقة ، قد يراها الاغريق فى الأقيسة المنطقية والتفكير العقلى

الاستنتاجى ، وقد يراها غيرهم فى شىء وراء العقل ويحتويه ، فمن الخطأ أن نقيس الفكر الانسانى ببداية التأليف الفلسفى عند الاغريق ، ونجعل ما عداه مجرد طقوس وشعائر ، تصدر عن ملاحظـات عامة ودراسات سريعة ، لم تصل بعد الى التفكير العلمى الصحيح (١) • لقد كان أميل بريهييه — فى تصديره لكتاب « الفلسفة فى الشرق » — محقا حين أشار الى اختلاف وجهات النظر بين الشرق والغرب فى تصور الحقيقة « مثال ذلك أن الأستاذ « مارسيل جرانه » فى كتابه « الفكر الصينى » ينسب الى رسوم مشتركة واجتماعية ، صورة الحقيقـة التى تتخيلها المذاهب الصينية ، وعندئذ تتخذ تلك الرسوم معنى — بل وتعليلا — مختلفا كل الاختلاف ، عما نقصـده بكلمة الدليل العقلى ••• وفى رأى الأسـتاذ أورسيل تعتبر الفلسفة الهندية مذهبا عمليا ، فالكائن يعـد فيها نتيجة عمل ، أى يعد مخلوقا ، والشىء الوحيد الجـدير بالاعتبار هو الفكرة الصحيحة لا الفكرة الموضوعية ، بل تلك المطابقة للمبادىء والتى تؤدى الى نجاح العمل ، فالذى تراه الفلسفة الهندية فى الروح هو القوة الفعالة لا المعرفة ، فهم يدركون الروح فى جميع وظائفها الحيـة ، لا فى مجرد وظائفها العقلية • فمذهب « اليوجا » الذى يمثل كثيرا الطابع الهندى يعلم بالتجربة ، كيف يمكن أن تنمى سلطة الروح على الجسد ، وفى الصين نرى كتيبا فى موضوع الألوهية يتحول الى نظرية فى الكائن ، كما نرى كتابا فى الشعائر الدينية الكونفوشيوسية يصبح نظرية للقواعد المطلقة ، فعند كونفوشيوس لا يتميز ما وراء الطبيعة عن علمى الأخلاق والسياسة ،

---

(١) « وتعتبر الفلسفة اليونانية أولى الفلسفات بالمعنى الصحيح ، لأن الافكار الدينية والمبادىء الخلقية ، التى عرفتها مصر والصين وفارس قبل اليونان ، لم تكن تمت الى الفلسفة بصلة ، ولم تنظر الى ظواهر الكون نظرة باحثة مدققة ، ولم تطلب من العقل تفكيرا علميا صحيحا . فآراء الشرقيين عن نشأة الكون وحقيقة الوجود وافكارهم عن الخير والشر ، تولد عن ملاحظات عامة ودراسات سريعة ، قاموا بها لتعينهم على فهم الحياة وطرق العيش فيها » (تاريخ الأدب اليونانى ص ١٥٧) .

وذلك بأنه اذا كان الأمر ، متعلقا بجعل العالم مفهوما ، فانه يجب أن يكون سهل التنظيم » •

وعلى هذا اتخذ تصور الحقيقة فى الفكر العربى الاسلامى ، وضعا يختلف عن تصورها عند الاغريق ، انهم لا يصلون اليها عن طريق العقل والأقيسة المنطقية ، بل يصلون اليها عن طريق الموقف الذى يحتوى العقل فيما يحتويه • ومن هنا لا ينبغى أن ندرس الفكر العربى عند بداية تكون المذاهب والفرق الكلامية ، أو عند بداية التأليف الفلسفى عند الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد ، وغيرهم ممن استرشدوا بالعقل فى تكوين أقيستهم وفى الرد على خصومهم ، بل ندرس الفكر العربى فى مرحلة أبعد من هذا ، ندرسه فى الشعر الجاهلى ، وفى الحكم والأمثال ، وفى الشعائر الدينية ، وفى أقوال الرسول ومواقفه السلوكية ، وفى مواقف الصحابة ازاء الأحداث الطارئة • وفى هذا الصدد نتحرز من استخدام مصطلح « فلسفة » بما شابه من التركيز على الأقيسة العقلية والأبنية الذهنية ، ونرى من الأنسب أن نبحث عن مصطلح مستمد من هذا الوضع الخاص ، وربما كانت كلمة « حكمة » أقرب الى كل ما يجول فى خاطرنا • لأنها تشمل الى جانب العقل ، الموقف الذى يعتمد على التجربة والسلوك والشعائر الدينية •

ولعلنا من هذا التصور نجد القرن الأول الهجرى أقرب الى التصور العربى للحقيقة ، الذى لم يختلط بعد بفلسفات وافدة ، ومن هنا لا نعتبره كما اعتبره البعض بداية الطريق نحو فلسفة عربية (١) ، فقد كان

---

(١) الدكتور زكى نجيب محمود يجعل من العقل المعيار الذى يرتضيه لتقويم الفكر العربى ، فمتى وجد شيئا عند المعتزلة او الفلاسفة او غيرهم يوافق العقل طالب باحيائه ودمجه فى ثقافتنا الحديثة ، وهو يرى ان القرن الأول الهجرى يتسم بعفوية النظر ، ويختلط فيه الأدب مع الفلسفة ، والفروسية مع السياسة ، ثم اخذ العرب بعد ذلك يتطورون ويتجهون نحو العقل . (انظر : المعقول واللامعقول ص ٩ و ٢٨٧) .

العرب فى ذلك القرن يتصـــورون الحقيقة لا على أنها الموضوعية أو العقلية ، بل على أنها تلك التى تتفق مع المبادىء الخلقية وتتخـــذ من العمل طريقا ، فالحقيقة شىء شامل لا ينفصل فيه العمل عن العقل • ومن هنا لم تنشأ فى تلك الفترة مشكلة علاقة العقيدة بالعقل ، فقد كان الصحابة والمسلمون يصدرون من موقف التسليم للمطلق ، ولم ينتزعوا من ذلك الموقف صورا فكرية مستقلة ، ثم يكونوا منها بناء عقليا • انما نشأت تلك المشكلة بعد ذلك ، وحـــين اتصل العرب بالثقافة الاغريقية واستخدموا مناهجها ، حينئذ بدأ الانفصال وتجزئة الشىء المتكامل ، وأطلت المشكلة برأسها ، وأخذوا يبحثون كيف يمكن التوفيق بين العقيدة والعقل ، وهل الحسن ما حسنه الشرع أو العقل ، وهل الايمان عن طريق العقل أو الوحى ، الى غير ذلك من أقضية بدأ العقل يطرحها •

وفى ضوء هذا يمكن أن نفهم موقف السلف فى تحريم علم الكلام وكراهية الجدل ، فقد أحسوا أنه منهج غريب ، ويفصل بين أشياء هى فى الحقيقة مركبة ، ويعارض الموقف الدينى القائم على التسليم ، ومن هنا نضع قول ابن تيمية موضعه الصحيح « وكان يعقوب بن اسحاق الكندى فيلسوف الاسلام فى وقته ، أعنى الفيلسوف الذى فى الاسلام والا فليس للاسلام فلاسفة » • حقا ، ليس للاسلام فلاسفة ، لأنه لا يقوم على أقيسة ذهنية ، تختزل صورا من حقيقة حية ، وتركز على مبحث المعرفة والبحث عن الماهيات ، بل فى الاسلام حكماء ومصلحون ، وورثة أنبياء ، يصدرون من موقف يكون فيه الوجود سابقا على الماهية ، ويجعل للعمل والسلوك دورا رئيسيا ، انه لا يفكر فى بناء علم للأخلاق أو علم للسياسة ، ولكنه يمارس كل ذلك وينتظر الهداية من المطلق •

* * *

٢ — ومصادر البحث هذه تقودنا الى ادراك العامل الرئيسى فى التاريخ العربى ، فهو تاريخ لم يقم على الصراع بين الطبقات وعلى

المراحل الخمس التى قال بها الماركسيون • وهذا يعنى أن أى تركيز على العامل الاقتصادى فى تفسير التاريخ العربى انما هو بعيد عن الواقع ، واسقاط للنظرة الغربية ولبحوث المستشرقين ، وقد أشار « ألفونس اتين دينيه » الى تلك الحقيقة ، واعترض على منهج المستشرقين الذين أسقطوا تصوراتهم على السيرة النبوية ، حتى تحول محمد الى ألمانى عند الألمانيين ، وفرنسى عند الفرنسيين ، وايطالى عند الايطاليين ، ثم يشير فى نهاية كتابه « الشرق كما يراه الغرب » الى المنهج المناسب لهذه السيرة فيقول « يحتاج العالم فى القرن العشرين الى معرفة كثير من العوامل الجوهرية ، كالزمن والبيئة والاقليم والعادات والحاجات والمطامح والميول والأحقاد ••• الخ • لا سيما ادراك تلك القوى الباطنة ، التى لا تقع تحت مقاييس العقول ، والتى يعمل بتأثيرها الأفراد والجماعات • لنضرب مثلا عكسيا : ما رأى الأوروبيين فى عالم من أقصى الصين يتناول المتناقضات التى تكثر عند مؤرخى الفرنسيين ويمحصها بمنطقه الشرقى البعيد ، ثم يهدم قصة « الكاردينال ريشيليو » كما نعرفها ، ليعيد الينا ريشيليو آخر ، له عقلية كاهن من كهنة بكين وسماته وطباعه (١) » •

وينبه « فولفانج » الى تلك القوى الباطنة فى تاريخ الشرق العربى عامة ، والتى لا يستطيع العقل الأوروبى ادراكها لأنه تقولب بقوالب ديكارتية ، فيقول عن الحضارة الفرعونية : « ليس من قبيل الصدفة أن نكون ورثة الروح الهيلينية والديكارتية ، فنحن اليوم بكل ما لدينا من المفاهيم الحديثة والمسطحة والأبنية العقلانية ، عاجزون عن الاقتراب

---

(١) وقد اسلم الفونس وتسمى باسم ناصر الدين . ومن هم مؤلفاته : « اشعة خاصة بنور الاسلام » وقد ترجمه راشد رستم سنة ١٩٣٩ بمصر . و « الشرق كما يراه الغرب » وقد ترجمه عمر الفاخورى ونشره بدمشق مع رسائل اجرى تحت عنوان « آراء غربية فى مسائل شرقية » (انظر : اوروبا والاسلام ص ١٥١) .

من الروح المصرى القـديم ، نحن لم نعد نعرف شيئا عن ذلك المركز الباطن ، الذى انبعثت منه كل هذه الأعمال والآثار ، وكانت ذات يوم تفيض واقعية وحياة ... من الخطأ أن نفتش عن أصل التقنية والنزعة التقنية عند المصريين ، كما أن من الخطأ أن نبحث عن أصل الدين عند الاغريق ، هذا على الرغم من أن المصريين قد نجحـوا فى حل أعوص المشكلات التقنية بطريقة لا تزال غامضة حتى اليوم ، انهم لم يتغلبوا أبدا على المصاعب التقنية بوسائل تقنية » ثم يذكر أن الأهرام لم تبن لأغراض نفعية كما يحاول الأوروبى الحديث أن يفهم « ان أمثال هذه الأعمال لم تقصد لمنفعة أو غرض ، بل يكن لها هدف فنى أو جمالى ، وهذا هو الذى يجعلها عديمة المعنى فى نظر الانسان الحديث ، انها لم تشيد من أجل شىء مما يتصل بهذا العالم ، ولكننا لا نتصور ولا نملك القدرة على تصور عمل ليست له غاية مرتبطة بشىء متعلق بهذا العالم والدليل على هذا أن مشاعرنا الدينية المزعومة لا تكاد تخرج فى معظمها عن أن تكون مشاعر دنيوية مقنعة (١) » .

ان الدور الرئيسى فى التاريخ العربى فيما أرى ، انما هـو لتلك النزعة السامية ، التى أورثها ابراهيم عليه السلام أبناءه ، والتى تبلورت بعد ذلك فى هبات دينية .

على ألا نفهم تلك الهبات بمفهوم غربى يفترض فى الدين مصلحـة بشرية ، فهو فى النهاية اجتهاد انسانى يحفظ الجماعات من الضياع ، ويقيم أخلاقا تنبنى على تبادل المصالح كما نتبادل النقود والابتسامات فأنا أسلك مع صاحبى هذا المسلك ، من منطلق أنه يفيد فى أن يسلك معى هذا الصاحب المسلك نفسه .

أما النزعة السامية فهى وراء ذلك المفهوم النفعى الواقعى . انها

---

(١) الكاتب (ديسمبر ١٩٧٤) .

تقوم على التضحية والفداء والخضوع لنداء المطلق : لقد طلب الله من ابراهيم أن يذبح ابنه فامتثل هو وامتثل الابن أيضا لهذا النداء ، الذى يبدو شاذا بالمقاييس النفعية ، وبأى مقياس يقوم على الغرائز أو العواطف أو العقل • وعيسى يطلب من تلاميذه أن يتخففوا من الذهب والفضة والأمتعة الدنيوية وأن يهربوا من مدينة الى مدينة حتى يأتى ابن الانسان (١) ، وكل المغريات قد عرضت على محمد فأبى وقال : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ، ما تركته (٢) » •

رفض كثير من فلاسفة الغرب فكرة التطور الآلى التى تتم عن طريق الاختيار الطبيعى ، وافترضوا قوة هادفة تحكم سير التاريخ • ولكن شتان بين المفهوم الغربى والمفهوم العربى لهذه القوة ، ان المفهوم الغربى مفهوم انسانى ، يعلى من قدرات البشر ، ويجعلها فى بعض الأحيان تتحدى الآلهة ، يلخص كولن ويلسون موقف هكسلى وويلز وتيلهارد من هذه القوة فيقول « الانسان الحالى هجين ، أى أنه مخلوق بوطنه الطبيعى ، المحيط الحياتى ، ولكنه يجاهد ليبنى لنفسه المحيط العقلى ، وانه يملك شهوة خلقية شخصية سامية ليصبح مخلوقا هادفا •• انها اللحظة التى يبدو فيها جليا أن الانسان لا يحتاج الى دين يأتيه من سلطة الهية ، ولا يحتاج الى وصايا ، لأن الدين بهذا المعنى هو احتياج حيوانى ليبقى حيوانا ، كحاجة الكلب الى سيد يأمره ، وأن تحل شهوة المعرفة محل الحاجة للايمان ، ويصبح الهدف قائدا داخليا ، ويلمح الانسان فى هذه اللحظة امكانية صيرورته انسانا حقا ، ويعى أن الأدوات التى يحتاجها فى هذا الوجود الجديد ، ليست سلاحا للهجوم والدفاع ،

---

(١) انظر : انجيل متى الاصحاح العاشر .

(٢) السيرة ٢٦٦/١ (الحلبى) .

وليست معاول للهدم والحفر ، بل ثقافة واعية وخيال واسع (١) » .

أما القوة الهادفة فى الحضارة الاسلامية فهى تعيش فى اصطلاح مع المطلق ، وفى توازن دقيق ، لا يتنكر للوعى البشرى ، وفى الوقت نفسه لا يتحدى المطلق .

يرى القرآن الكريم أن التطور الى أفضل لا يتم بطريقة آلية ، تخضع لما يسمى منطق التاريخ أو العقل الكلى أو تنازع البقاء ، بل ان الحياة قد تتطور الى أسوأ ، والله قادر على أن يخسف الأرض بالناس . أو يسقط السماء عليهم ، أو يرسل عليهم الطوفان والجراد والقمل ، ولكن هذه القوة المطلقة ليست عابثة ، انها رد فعل لتصرفات البشر ومسلكهم فى الحياة ، والآيات القرآنية تتوارد لتبين المصير السيء الذى ينتظر العاصين « وضرب الله مثلا قرية كانت امنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » (٢) « ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى الا الكفور » (٣) « ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون » (٤) . وفى الوقت نفسه تتوارد الآيات لتبين جزاء الطائعين بسبب عملهم « ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم »(٥) « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » (٦) . ان كل هذا يعنى أن القوة المطلقة تتولى الجهد البشرى بعنايتها ، وأن هذا الجهد هو المسئول عن الحركة التطورية ، وعن تغيير وضع الانسان ، الى أسوأ أو الى أفضل .

---

(١) ما بعد اللامنتمى ص ١٦٦ .
(٢) النحل ١١٢ .
(٣) سبأ ١٧ .
(٤) الروم ٤١ .
(٥) المائدة ٦٦ .
(٦) الأعراف ٩٦ .

وحقا ان القرآن الكريم يورد أمثلة يبين فيها أن التطور ينتهى الى الزوال ، فالانسان كان نطفه ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم طفلا ، ثم شابا ، ثم يرد الى أرذل العمر (١) ، والمطر ينزل على الأرض فتخرج زرعا مختلفا ألوانه ، ثم يهيج فتراه مصفرا ، ثم يكون حطاما (٢) • والحياة الدنيا كذلك لهو ولعب ومتاع الغرور ، ولها وقت معلوم تتفطر فيه السماء ، وتنتثر الكواكب ، وتنشق الأرض ، وينتهى كل شىء •

ولكن هذا لا يعنى جانبا تشاؤميا ، بل يعنى استنفار الجهد البشرى ، وحثه على مقاومة الأهواء ، والبعد به عن الحرص والطمع وكل أنواع التكالب على المادة • وقف عمر بن الخطاب يشرح سياسته فى الحجر على أعلام قريش ألا يخرجوا فى البلدان حتى لا تفتنهم الدنيا ، فقال « ألا اننى قد سننت الاسلام سن البعير ، يبدأ فيكون جزعا ، ثم ثنيا ، ثم رباعيا ، ثم سديسا ، ثم بازلا ، ألا فهل ينتظر بالبازل الا النقصان ، ألا فان الاسلام قد بزل ، ألا وان قريشا يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده ، ألا فأما وابن الخطاب حى فلا ، انى قائم دون شعب الحرة ، آخذ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا فى النار » (٣) •

فاحساس عمر بالتطور نحو الأدنى لم يدفعه الى التشاؤم ، بل دفعه الى استنفار الجهد ، وذلك لأن الاسلام لا يبحث التطور فى عالم

---

(١) « يأيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ، لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء الى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكى لا يعلم من بعد علم شيئا » الحج/٥

(٢) « اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما » الحديد / ٢٠ .

(٣) تاريخ الطبرى ٣٩٦/٤ .

الزمن فقط ، بل يشير الى مراحل ثلاث للتطور : مرحلة قبل خلق الدنيا ، حين كان ادم وحواء ، أو الجنس البشرى ، ينعمان فى الجنة مع الملائكة ، ولا يحسان بالمسئولية ، أو تضارب الغرائز ولا بالصراع من أجل البقاء • والمرحلة الثانية فى الحياة الدنيا ، حين طرد آدم وحواء من الجنة وأخذا يكدحان من أجل العيش ، ويعانيان الصراع ، ويدخلان فى تجربة بعد تجربة ، وهى مرحلة تفضل سابقتها (١) ، والانسان فيها يفضل الملائكة ، لأنه خليفة الله فى الأرض ، وهو المسئول عن هزيمة الشر وانتصار الخير ، وقد ألهمه الله من الأسرار ما لا تعلمه الملائكة • أما المرحلة الأخيرة ، فهى الدار الآخرة ، والقرآن يركز كثيرا على هذه الدار ، وأنها خير من الأولى وأبقى •

فحين يتحدث القرآن الكريم عن النبات الذى سيذبل ، أو عن الانسان الذى سيهرم ، أو عن الدنيا التى ستزول ، انما يفعل ذلك لكى يؤكد على المرحلة الأخيرة ، وهى مرحلة يعود فيها الانسان الى حالة شبيهة بالحالة الأولى ، فالقران الكريم يقول « وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة » (٢) والرسول صلى الله عليه وسلم يقول « انكم محشورون حفاة عراة غرلا • ثم قرأ « كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين » وأول من يكسى يوم القيامة ابراهيم » (٣) •

والمرء يعود الى مثل الحياة الأولى ، حيث يختفى الصراع ، ويتخلص من التكاليف والمسئولية ، ولن يتعرض مرة أخرى لوساوس

---

(١) هناك تفاسير لقوله تعالى : « كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين .. » الآية . منها « أنهم امة واحدة فى خلوهم من الشرائع وجهلهم بالحقائق ، لولا من الله عليهم وتفضله بالرسل اليهم » (تفسير القرطبى ٢/٨٣٩) .

(٢) سورة الكهف ١٨

(٣) البخارى ٤/١٣٩

الشيطان ، ولن يطرد من الجنة أو النار ، بل سيخلد فيها حسب مصيره • ولكنه لن يصل الى ذلك الا بعد أن يكون قد مر بمرحله الخبرة والمعاناة • ان المرحلة الثانية (الحياة الدنيا) هى التى تشكل وضعية الانسان فى حياته الاخيرة ، وعمله هو الذى سيخلقه من جديد ، فاذا ما استنفر الجهد البشرى الخلاق ، وتمسك بالمثل العليا ، فان جزاءه مرحلة ينعم فيها بحياة سرمدية ، لا يتعرض فيها للألم والمخاوف والاضطراب •

وهكذا من أية ناحية نبدأ ، نجد أنفسنا وجها لوجه أمام مفهوم التطور فى الحضارة الاسلامية ، فهو مفهوم يستنفر الجهد البشرى ، ويستظل بظل القوة المطلقة ، والمنزهة عن العبث والعشوائية ، أى انه مفهوم يقوم على وسطية يتوازن فيها الجهد البشرى مع القدرة الالهية •

* * *

٣ ــ أهم سمة من سمات الوسطية العربية هى ذلك الاحساس بالشعرة الرقيقة التى تفصل بين شيئين ، ان هناك فرقا بين من يرى الخمر الرائق فى الزجاج الرقيق فيتشاكل عليه الأمر ويرى أنهما شىء واحد ، وبين من يتنبه للصلة الدقيقة بينهما فيقول كأنهما شىء واحد • ان الموقف الأول قد فقد الشعرة الرقيقة فوقع فى الاشكال ، أما الثانى فقد تنبه لها ووقع على الحقيقة •

وحين بعث محمد صلى الله عليه وسلم اختلط الأمر على معاصريه وأشكلت عليهم حقيقة أمره ، فمنهم من كان يسميه ابن أبى كبشة ، على اعتبار أنه امتداد لأبى كبشة ، وهو أول من عبد الشعرى وخالف قومه فى عبادة الأصنام (١) ،ومنهم ــ وهو النضر بن الحارث ــ من كان يجلس فى مجلسه ويحدث العرب عن قصص رستم واسفنديار ويرى أنها أحسن من قصص محمد (٢) •

---

(١) أنظر : تفسير الالوسى ، سورة النجم .

(٢) تفسير القاسمى وتفسير البيضاوى ، سورة الانفال / ٣١ .

لقد عمى الأمـــر على هؤلاء وأولئـــك ، واختلطت المهارة والذكاء والطموح بالنبوة ، ولم يتنبهوا للشعرة الدقيقة جدا والتى تفصل بين الحقيقة والشىء الذى يرتدى ثوب الحقيقة ، والتى تنبه لها رجل مثل أبى بكر الصديق فقال معلقا على كلام مسيلمة الكذاب « ويحكم ان هذا لم يخرج عن آل » (١) •

وقد غلط كثير من المستشرقين والمفكرين الأجانب فى تلك الشعرة الرقيقة ، فخلطوا مثـــلا بين التوكل والتواكل ، والسحر والنبـــوة ، والكاهن والرسول •

ولأن الوسطية تقوم على الحركة بين الأمرين ، كان من السهل أن تختلط الأمور فيها ، وأن يقع المرء فى خداع الألفاظ ، أو فيما يسميه ابن القيم مشتبهات التوكل • ومن ثم كانت الحاجة ماسة الى تحديد الألفاظ ، ووضع المصطلحات كراهية الالتباس بين الصحيح والزائف •

يضرب عثمان بن فودى أمثلة (٢) تبين حرج الموقف ، الذى يؤدى بالكثيرين الى الوقوع فى الأوهام ، ويكشف عن حقيقة الألفاظ ، ويمكن أن تكون هذه الأمثلة نواة لقاموس اسلامى ، يحدد المصطلحات من واقع ثقافتها ودون أن يضفى عليها أوهاما من خارجها ، فهناك فرق بين العجز والتوكل ، فالتوكل أخذ بالأسباب ثم اعتماد على الله فى تحصيل النتائج • أما العجز فهو قعود عن الأخـــذ بالأسباب • وهناك فرق بين النصح والتأنيب ، النصح يصدر بدافع الخير والتأنيب بدافع الشر والاهانة • وهناك فرق بين حب الرياسة وحب الدعوة الى الله ، الأول يصدر عن حب التملك والتأثير على الناس والثانى عن حب الله والغيرة على الدين •

---

(١) اعجاز القرآن ٩/٢ .
(٢) راجع : حصن الافهام ص ٥٤ .

وهناك فرق بين الغلو والاجتهاد ، الاجتهاد محاولة الوصول الى الحقيقة والغلو مجاوزة الحقيقة وتعديها • وفرق بين الذل والعفو الأول يصدر عن العجز والمهانة والثانى عن كرم النفس وقدرتها على الانتقام • وفرق بين التيه وشرف النفس ، الأول يصدر عن عجب بالنفس والازراء بالناس ، والثانى عن الترفع عن الدنايا والرذائل • وفرق بين السرف والجود ، فالجود « بذل المعطى حيث أمره الشرع والسرف بذله حيث نهاه الشرع » • وفرق بين الكبر والهيبة ، فالكبر عجب وجهل والهيبة ثقة وحسن سمت • وفرق بين المهانة والتواضع ، فالمهانة دناءة وخسة وضعف فى النفس ، والتواضع يصدر عن كبر النفس « فلا يرى له على أحد فضلا ولا يرى له عند أحد حقا » • وفرق بين سوء الظن والاحتراز ، فالأول مرض يجعله يتوقع من الناس شرا فيندفع الى التهجم عليهم ، والثانى حكمة تجعله يحس بالمكروه فيتوقاه ، وفرق بين التمنى والرجاء ، فالتمنى اسراف فى الخيال على غير أساس ، والرجاء تفاؤل يستند على أساس • وفرق بين الجزع والرقة « لأن الرقة ناشئة عن الرأفة والرحمة والجزع ناشىء عن ضعف النفس وخور القلب » • وفرق بين القسوة والصبر ، فالقسوة جمود وغلظ والصبر ضبط للنفس وقوة للارادة وامتثال لقضاء الله • وفرق بين الرشوة والهدية « لأن الهدية ما يعطى لقصد استجلاب المودة والرشوة ما يعطى لقصد ابطال الحق » • وفرق بين الشكاية وذكر الحال ، فالشكوى سخط وجزع وذكر الحال قد يقصد به ازالة الضر ممن يقدر على ذلك ، وفرق بين البله وسلامة القلب « لأن سلامة القلب براءته من ارادة الشر بعد معرفته والبله جهل وقلة معرفة » • وفرق بين الفخر والشكر ، فالفخر تيه على الناس واستعباد نفوسهم ، أما الشكر فهو اظهار نعمة الله ودعوة الى التنافس فى فعل الخير •

ويستطرد ابن فودى فى الكشف عن الخيط الدقيق ، أو الصراط المستقيم الذى يفصل بين الحقيقة والوهم ، وهو صراط لا يقع عليه

المرء عن طريق الحدة الذهنية ، ولكن عن طريق الحكمة ، التى تحتاج الى صفاء قلب ، ومخالطة للواقع ، والى حساسية كالشفرة الحادة ، تنفر من الخطأ والشر والزيف ، وتحس بالصواب والخير والصحيح ، هى حكمة تحتاج الى نور من الله ، ودعاء له بالا يتركه وحيدا ، وان يوفقه دائمـا الى الوقوع على الخيط الدقيق ، ان دعاء المسلم الذى يكرره فى صلاته اليومية ، هو ما جاء فى فاتحة الكتاب « اياك نعبد ، واياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم » ،ويشرح كثير من المفسرين هذا الصراط المستقيم ، بأنه طريق الكمال أو الوسط ، الذى يجمع بين الحق عند النصارى وعند اليهود « صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » .

السـحر :

ان موضوع السحر يصلح مثلا تطبيقيا على رقة الشعرة ، وعلى الوهم الذى يقع فيه البعض فيحسبون على الثقافة العربية أشياء هى بعيـدة عن روحها تماما ، ان « شبنجلر » يسمى الحضارة العربيـة بالحضارة السحرية ، ويتخـذ من الكهف رمزا لها ، وهو يعنى الايمان بالقوى الخفية الغامضة ، كما كان الانسان الأول يؤمن بالجن والأرواح والسحر والأساطير (١) • والدكتور زكى نجيب محمود يعقد فى نهـاية كتابه « المعقول واللامعقول » فصلا عن السحر ، ويحسبه على الثقافة العربيـة •

حقـا ان السحر قد ورد فى كتب عربيـة كثيرة (٢) ، تتحدث عن ممارسته وأنه كان منتشرا بين السريانيين والكلدانيين وقبط مصر (٣) ، وتذكره كعلم (٤) ، وتشرح طرائق تعلمه (٥) ، وتتحـدث عن أعلامـه المشهورين مثل جابر ومسلمة ومن كان قبلهم من حكماء الأمم (٦) ، وحقا ان القرآن الكريم قد ذكر السحر والسحرة فى أكثر من موضع ، وأن أهـل السنة يؤمنـون أن فى الدنيـا سحرا (٧) ، ولكن مع ذلك يجب أن

---

(١) شبنجلر ص ١٣٩

(٢) انظر : « السحر فى المؤلفات العربية » لمحمد عبد الغنى حسن (مجلة الهلال — يناير ١٩٧٥ م) •

(٣) تفسير الرازى ، البقرة ١٠٢

(٤) اخوان الصفا (٢٠٢/١) يجعلون من العلوم الرياضية « علم السحر والعزائم والكيمياء والحيل وما شاكلها » .

(٥) يذكر اخوان الصفا (٧٢/١) ان النظر فى الهندسة العقلية ومعرفة خواص العدد يعين على فهم كيفيات تأثيرات الاشخاص الفلكية .

(٦) مقدمة ابن خلدون ص ٥١٣

(٧) مقالات الاشعرى ٣٢٠/١ وتفسير القرطبى ٤٣٦/١

ينظر الى هذه القضية فى وضعها الصحيح • وقد حان الوقت لكى نفرق بين امكانية فتح الباب أمام توقع الجديد ، وتقبل غير المألوف ، وبين السحر كشىء عقائدى •

فقد عرفنا أن الحضارة العربية لا تقف عند الوظيفة الاستنتاجية للعقل ، والتى تقوم على السبب والمسبب وعدم التناقض ، بل فتحت الميدان أمام العقل لتقبل التوقعات والطوارىء ، وأن تلك السمة قديمة مع العربى فى صحرائه ، حين كان يتوقع الطوارىء ويفاجأ بما يغير حالته من عسر الى يسر • ثم جاء الاسلام فأكد تلك السمة وضبطها وحددها فى مصطلح « التوكل » •

ويمكن من خلال ذلك أن نتصور امكانية وقوع السحر • فأهل المعتزلة ممن يؤمنون بالعقل الاستنتاجى والذى يقوم على السبب والمسبب ، وينحصر فى الذهن البشرى المحدود ، قد أنكروا امكانية وقوع السحر ، فلا حقيقة له وانما هو تمويه وتخييل (١) • وأما أهل السنة ممن يفتحون العقل أمام خوارق العادات « فقد جوزوا على أن يقدر الساحر على أن يطير فى الهواء ، ويقلب الانسان حمارا أو الحمار انسانا ، الا أنهم قالوا : ان الله تعالى هو الخالق لهذه الأشياء » (٢) وقالوا « لا ينكر أن يظهر على يد الساحر خرق العادات بما ليس من مقدور بشر ، من مرض وتفريق وزوال عقل وتعويج عضو الى غير ذلك ، مما قام الدليل على استحالة كونه من مقدورات البشر ••• ومع ذلك فلا يكون السحر موجبا لذلك ولا علة لوقوعه ، ولا سببا مولدا ، ولا يكون الساحر مستقلا به ، وانما يخلق الله هذه الأشياء ويحدثها عند وجود السحر كما يخلق الشبع عند الأكل » (٣) •

---

(١) تفسير القرطبى ٤٣٦/١
(٢ تفسير الرازى ، البقرة ١٠٢
(٣) تفسير القرطبى ٤٣٧/١

واذا كان السحر ممكنا عند أهل السنة فقد دعوا الى تعلمه ، لا لأن السحر مرغوب فيه ، بل من أجل العلم ذاته وفتح الذهن أمام الجديد ، يقول الغزالى فى الرسالة اللدنية « فاعلم أن العلم شريف بذاته ، من غير نظر الى جهة المعلوم ، حتى ان علم السحر شريف بذاته وان كان باطلا ، وذلك أن العلم ضد الجهل ، والجهل من لوازم الظلمة ، والظلمة من حيز السكون ، والسكون قريب من العدم » (١) ويقول الرازى « ان العلم بالسحر غير قبيح ولا محظور ، اتفق المحققون على ذلك ، لأن العلم لذاته شريف ، وأيضا لعموم قوله تعالى « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ولأن السحر لو لم يكن يعلم لما أمكن الفرق بينه وبين المعجز ، والعلم بكون المعجز معجزا واجب ، وما يتوقف الواجب عليه فهو واجب ، فهذا يقتضى أن يكون تحصيل العلم بالسحر واجبا ، وما يكون واجبا كيف يكون حراما وقبيحا » ثم يذكر أن الله أنزل الملكين هاروت وماروت لتعليم الناس السحر لوجوه ، يهمنا منها الآن وجهان « أحدها : أن السحرة قد كثرت فى ذلك الزمان واستنبطت أبوابا غريبة فى السحر ، وكانوا يدعون النبوة ويتحدون الناس بها ، فبعث الله هذين الملكين لأجل أن يعلما الناس أبواب السحر ، حتى يتمكنوا من معارضة أولئك الذين كانوا يدعون النبوة كذبا ، ولا شك أن هذا من أحسن الأغراض والمقاصد • ثانيها : أن العلم بكون المعجزة مخالفة للسحر متوقف على العلم بماهية المعجزة وبماهية السحر ، والناس كانوا جاهلين بماهية السحر ، فلا جرم هذا تعذرت عليهم معرفة حقيقة المعجزة ، فبعث الله هذين الملكين لتعريف ماهية السحر لأجل هذا الغرض » (٢) •

وقد يسخر أصحاب العقل المحدود من آراء أهل السنة ، ويعتبرونها تجديفا وخرافات لا سند لها • ولكن الحقيقة غير ذلك ، ان المتمسكين

---

(١) الجواهر الغوالى ص ٢٢

(٢) تفسير الرازى ، البقرة ١٠٢

بدائرة العقل لا يتجاوزونها ، قد ينتهى بهم الأمر الى الجمود ، ثم الى السكون « والسكون قريب من العدم » كما يقول الغزالى • هم يعيشون وفق المألوف والمعتاد ، وينكرون ما هو خارج عن ذلك ، وقد يؤدى بهم ذلك الى الوقوف ضد الجديد والخارق والعجيب • أما أهل السنة فيتركون الباب مفتوحا أمام التوقعات ، ويدعون العقل كالشفرة الحادة فى حالة ترقب وانتظار والتقاط حتى لغير المألوف •

وهذا الموقف يجعل المرء لا يقف أمام انجازات العلم ، لأن ما يبدو مستحيلا فى عرف النظرة الآنية قد يصبح بعد قليل ممكنا ويعتاده الناس والرازى نفسه يجعل من أقسام السحر تلك « الأعمال العجيبة التى تظهر من تركيب الآلات المركبة على النسب الهندسية تارة وعلى ضروب الخيلاء أخرى ••• ومنها الصور التى يصورها الروم والهند ، حتى لا يفرق الناظر بينها وبين الانسان حتى يصوروها ضاحكة باكية ••• وكان سحر سحرة فرعون من هذا الضرب ومن هذا الضرب تركيب صندوق الساعات » • وابن خلدون يدرج السحر فى علم الفلك والنجوم (١) ، واخوان الصفا يدرجونه فى علم الكيمياء والحيل كما ذكرنا ، ويعتبرون جابر بن حيان من السحرة ، ربما لأنه كان مشغولا بحجر الفلاسفة الذى يحول التراب الى ذهب •

وفى ضوء تلك الأقسام للسحر يمكن اعتبار دعوة أهل السنة الى تعلم السحر ، هى دعوة الى تقبل الغرائب التى تحققها الاختراعات وعلم الطبيعة وعلم الفلك وعلم الكيمياء الذى يحول المادة من طبيعة الى طبيعة ، كما كان يحلم الفلاسفة قديما بتحويل التراب الى ذهب ، ان الخوف أن يؤدى انكار امكانية السحر الى انكار غرائب المخترعات ، لأن العقل لا يصدقها قبل أن تصبح حقيقة واقعة ، وبذلك يتحول الى حجر

---

(١) المقدمة ص ٤٧٩

عثرة فى سبيل التقدم على الرغم من التمسك الظاهر بالمناهج العقلية الضيقة .

ولكن لا يعنى امكانية وقوع السحر دعوة الى ممارسته ومباركته واعتباره من التراث العربى ، اننا هنا مرة أخرى فى حاجة الى تبين تلك الشعرة الدقيقة ، التى تفصل بين المنسوخ والمحكم ، بين الزائف والصحيح ، قد يلتبس السحر بالنبوة عند البعض . لأنهما يرجعان الى امكانية خرق العادة ومخالفة المألوف ، ولكن هذا الالتباس يؤدى فى صورته الزائفة المنحرفة الى السحر ، ويؤدى فى صورته الحقيقية الى النبوة ، فكشف السحر انما هو عن طريق معوج وكشف الصوفية انما هو عن طريق مستقيم كما يقول ابن خلدون (١) .

فالسحر على الرغم من امكانية وقوعه انما هو خداع وتمويه ، وهو « فى الشرع مختص بكل أمر يخفى سببه ويتخيل على غير حقيقته ويجرى مجرى التمويه والخداع » (٢) . وقد تواردت الآيات القرآنية فى أكثر من موضع ، تبين هزيمة السحر لأنه يقوم على الخداع والزيف ، وانتصار النبوة لأنها تقوم على الحق والصدق « فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم . وأوحينا الى موسى أن ألق عصاك فاذا هى تلقف ما يأفكون ، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون » (٣) « فأوجس فى نفسه خيفة موسى . قلنا لا تخف انك أنت الأعلى . وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا انما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى » (٤) .

---

(١) المقدمة ص ٤٧٠

(٢) تفسير الرازى ، البقرة ١٠٢

(٣) الاعراف ١١٦ — ١١٨

(٤) طه ٦٧ — ٦٩ . ويذكر الرازى عند الآية / ١٦ ان السحرة حشوا عصيهم بما اذا وقعت الشمس عليه يضطرب ويتحرك .

وقد وقف السلف موقفا رافضا للسحر واعتبروا الساحر كافرا (١)، وجمهور العلماء يرى قتله « لأنه كالمدعى للنبوة وكافر بالأنبياء ، يرى الامام مالك والأئمة ابن حنبل والشافعى وأبو حنيفة وغيرهم ، أن المسلم اذا سحر بنفسه بكلام يكون كفرا ، يقتل ولا يستتاب ولا تقبل توبته ، لأن الله تعالى سمى السحر كفرا • كما يقول فى الملكين المعلمين للسحر « وما يعلمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر » واستدلوا على ذلك بحديث ــ ضعفوه ــ يقول « حد الساحر ضربه بالسيف » (٢)، ثم يذكر أنه كان عند الوليد بن عقبة ساحر يلعب بين يديه ، فكان يضرب رأس الرجل ثم يصيح به فيرد اليه رأسه ، فقال الناس : سبحان الله ، يحيى الموتى • ورآه رجل من صالحى المهاجرين ، فلما كان الغـد جاء الساحر مشتملا على سيفه ، وأخذ يلعب لعبه ذلك • فرفع المهاجر سيفه وضرب عنق الساحر وقال عنه : ان كان صادقا فليحى نفسه ، وتلا قول الله تعالى « أفتأتون السحر وأنتم تبصرون » •

تلك هى قضية السحر وقد وضعت موضعها الصحيح فى الحضارة الاسلامية ، فتح الاحتمال أمام امكانيته ودعوة الى تعلمه ، ولكن فى الوقت نفسه يصدر من موقف التمويه وتحرم ممارسته ، انها الشعرة الدقيقة جدا ، والتى قد تغيب عن المستشرق الغريب لأن ذهنه قد تشكل بمناهج واقعية عقلانية ، ولكنها لا تغيب عن الشرقى ، لأنه يعيش دوما فى ظلال المطلق ، الذى يستطيع أن يخرق العادة ، وأن يحطم القوانين التى اعتادتها العقول البشرية ، مثل قانون السبب والمسبب ، وقانون عدم التناقض •

---

(١) مقالات الاشعرى ١/٢٢٠

(٢) انظر : « السحر فى القرآن » للدكتور أحمد الشرباصى (الهلال يناير سنة ١٩٥٨) •

وبهذا الوضع الصحيح نجد أنفسنا وجها لوجـه أمام الوسطية العـربية ، التى تدور فى فلك التوكل بالمفهوم الذى شرحناه من قبل ، فالسحر مثله مثل علم النجوم أو الطب أو كل ما يدور فى الحياة الدنيا ، يقف منه المسلم موقفا وسـطا ، لا يرفضه ولكن لا يركن اليـه ويترك الاعتماد على الله ، يشرح أبو حيان ذلك بأسلوب كله خبرة ونفاد بصيرة فيقول « علم الأحكام (النجوم) لا يجوز فى الحكمة أن يكون مدركا مكشوفا ، مخاطبا به معروفا ، ولا يجـوز أن يـكون مقنوطا به مطرحا مجهولا ، بل الحكمة توجب أن يتوسط هذا الفن بين الاصابة والخطأ ، حتى لا يستغنى عن اللياذ بالله أبدا ، ولا يقع اليأس من قبلـه أبدا ، وعلى هذا سخر الله الانسان وقبضه وخيره بين الأمور وفوضه ، ومنع من الثقة والطمأنينة الا فى معرفته وتوحيده وتقديسه وتمجيده والرجوع اليه • انظر الى حديث الطب فان عنـده الصناعة توسطت الصـواب والخطأ ، لتكون الحكمة سارية فيها ، واللطف معهـودا بها ، لأن الطب كما يبرأ به العليل قد يهلك معه العليل ، فليس بسبب أن بعض المدبرين بالطب هلك ، لا ينبغى أن ينظر فى الطب ، وليس بسبب أن بعض المرضى برأ بالطب ، وجب أن يعول عليه • انظر الى هذا التوسط فى هذه الحال ، ليكون التدبير الالهى والأمر الربوبى نافذين فى هذه الخلائق بوساطة ما بينه وبينها ، ولتكون المصلحة بالغة غايتها • وهذه سياسة دار الفناء الجامعة لسكانها على البأساء والنعماء ، وهكذا فانظر الى حديث البحر وركوب البأس المتيقن فيه ، وجوب الطول والعرض واصابة الريح وطلب العلم ، كيف توسط بين السلامة والعطب ، والنجاة والهلكة ، فلو استمرت السلامة حتى لا يوجد من يغرق ويهلك لكان فى ذلك مفسدة عامة ، ولو استمرت الهلكة حتى لا يوجـد من يسلم وينجـو لكان فى ذلك مفسدة عامة ، فالحكمة اذا ما توسط هذا الأمر حتى يشكر الله من ينجو ، ويسلم نفسه لله من يهلك » (١) •

* * *

(١) الامتاع والمؤانسة ٣٩/١

تلك هى أهم سمات المنهج الذى ندرس به الحضارة العربية ، وهى سمات منتزعة من طبيعة تلك الحضـــارة ، وتكشف عن خصـــوصياتها ، وتتنبه للشعرة الدقيقة التى تتميز بها تلك الحضارة • وقد تخفى على المستشرقين على الرغم من عظم ما قدموه للثقافة العربية ، لأنهم ينتمون الى بيئة قد شكلتهم بقوالب اغريقيـــة ، لا تسمح طبيعتها العقلانيـــة الصارمة بتفهم روح الحضارة الشرقية التى تتأبى على تلك القوالب •